

نفيسة مشغولة دائماً، لا تكاد تستريح من السعي بالرسائل والحاجات بين رجال المدينة ونسائها وبينهم جميعاً وبين الجن والشياطين، ولكن شهرتها بذلك قد جاوزت المدينة ووصلت إلى القرى وتسامع بها أهل الريف فأخذوا يسعون إليها، ثم أخذت هي تسعى إليهم وتنتقل بينهم بسحرها وطلسماتها وودعها، وهي حين رأيته كانت تزور القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أنباء الغيب.

ولم يكد يتصل الحديث بيننا وبين هؤلاء النسوة حتى كانت نفيسة أسرعهن إلى نفوسنا، وأحرصهن على أن تمتلكنا وتصل بيننا وبين أصدقائها من الجن والعفاريت، لم تجد في ذلك مشقة ولم تتكلف له جهداً، فهذه الفتاة الذاهلة التي لا تكاد ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تجيب خليفة أن تلفت العجوز الساحرة إلى نفسها، وقد فعلت ... فما أكثر ما تلح هذه العجوز في السؤال لتعرف ما بهذه الفتاة! والفتاة لا تجيب، وأُمنّا أشد منها حرصاً على الصمت وإغراقاً فيه، والسؤال يتجه إليّ دونهما، فأضطر إلى أن أزعّم أن بأختي علة قد أعيت الطبيب، وداء لا نعرفه ولا نجد له دواء، وما أيسر ما تُفُضُ السرة ويُنثر منها الودع على الأرض! ثم ما أسرع ما تعمل فيه يد نفيسة جمعاً وتفريقاً، وضماً ونثراً، تلائم بينه وتخالف، وتتخذ منه أشكلاً تقرأ فيها من أنباء الماضي والحاضر والمستقبل أعجب العجب.

إني لأراها الآن وقد مضت أعوام طوال منذ ذلك اليوم وهي تنظر في الودع وتطيل النظر، ثم تظهر على وجهها هذه الآيات التي تدل على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع، وإني لأسمع صوتها المحطم الذي كان هامساً دائماً مهما يرتفع، وإني لأحفظ جملها منذ ذلك اليوم ما نسيتها ولن أنساها، وكيف أنساها وقد صدقها الزمان؟ نظرت إلى ودعها، ثم أطالت النظر فيه، ثم رفعت عينها إلى أختي فأطالت النظر في وجهها، ثم عادت إلى الودع فأثبتت عينها فيه، ثم رفعت رأسها وهي تقول للفتاة: إن أمرك يا ابنتي لعجيب، إني أراك بين اثنين: أحدهما يحبك وسيؤذك، والآخر أذاك وسيحبك، وإني لأحاول أن أفهم فلا أستطيع، والرأي لك يا ابنتي أن تستشيرى سادتنا من الجن أو سادتنا من الأولياء ... وما أرى أن هذا عليك عسير؛ ففي هذه القرية القريبة منا والتي تستطيعين أن تبلغيها في ساعة وبعض ساعة ما تحبين: فيها مقام سيدنا فلان، وإنه ليأتي بالأعاجيب، وفيها دار فلانة وإن قرينها من الجن ليحدث بالأعاجيب أيضاً، ولم تكد نفيسة تنطق بالجملة الأولى من حديثها حتى وثبت أُمنا كأنما دُفعت إلى الوثوب دفْعاً آلياً، وانطلقت مسرعة فلم نرها إلا بعد وقت طويل.